الرائد الذى رحل :



فيليب حتي

ومدرسته فى قراءة التاريخ العربى

« ١٨٨٦ ـ ١٩٧٨ »

بقلم : الدكتور احمد عبدالرحيم مصطفى

أحد رواد عرب المهجر اللامعين الذين أتاحت لهم البيئة الغربية وامكانياتها أن يثروا المكتبة الغربية بنتاج قرائحهم الذى أفاد من النظرة اللامعة المترتبة على الانفتاح الفكرى على الحضارة الغربية المتفوقة ، أفادته من التسهيلات الاكاديمية والمكتبية التى تتيحها الحياة فى الغرب ٠٠

ومن الرواد العرب المقتربين فى حقل الدراسات التاريخية ألبرت حورانى ـ اللبنانى الاصل ـ الذى أسهم فى القاء الاضواء على تاريخ سوريا ولبنان وأجاد فى استعراض النهضة الثقافية والسياسية الحديثة فى الوطن العربى فى كتابه « الفكر العربى فى عصر النهضة » الذى نشر فى الاصل باللغة الانجليزية ثم ترجمه الى اللغة العربية منهم أيضا مجيد خدورى ـ العراقى الاصل ـ الذى ألف بالانجليزية ثلاثيته الهامة عن تاريخ العراق الحديث : « العراق المستقل » ٠٠ « العراق الجمهورى » ـ « العراق الاشتراكى » وأجاد فى عرض التيارات السياسية الحديثة فى الوطن العربى فى كتابيه « الاتجاهات السياسية فى العالم العربى » و « عرب معاصرون » (1) ومنهم أخيرا وليس آخرا عزيز سوريال عطية ـ المصرى الاصل ـ الذى تفرغ فى البحث فى التاريخ الوسيط ووضع

١ ـ ترجم هذان الكتابان الاخيران الى اللغة العربية وكذلك كتاب العراق الجمهورى ٠

كتابا هاما عن « صليبية نيكوبوليس » التى شنها الغرب الاوروبى المسيحى على الدولة العثمانية فى أواخر القرن الرابع عشر ولكنها منيت بهزيمة ساحقة٠٠كل هؤلاء الرواد كتبوا باللغة الانجليزية واصطنعوا أساليب البحث العلمى الغربى وشغلوا مرمرقة فى الجامعات ودور العلم الانجليزية والامريكية خاصة وأن اجادتهم التامة للغة العربية (٢) قد أثرت انتاجهم وأعطته بعدا قد لا يتاح حتى لابرز المستشرقين ٠٠

حتى ٠٠ فى سطور

أما فيليب حتى ـ اللبنانى الاصل ـ فقد ولد فى شملان فى عام ١٨٨٦ ثم درس بالجامعة الامريكية فى بيروت حيث حصل على درجة البكالوريوس فى العلوم (١٩٠٨م) وبعد ذلك توجه الى الولايات المتحدة فى عام ١٩١٣م والتحق بجامعة كولومبيا حيث حصل على درجة الدكتوراه فى اللغات الشرقية وآدابها (١٩١٥م) ثم قام بالتدريس فى نفس الجامعة التى تخرج فيها ٠٠ وبعد أن وضعت الحرب العظمى أوزارها عاد الى لبنان بطلب من جامعة بيروت الامريكية وعين أستاذا لتاريخ العرب حتى عام ١٩٢٦م ثم التحق بجامعة برنستون الامريكية بصفته استاذا لتاريخ العرب ثم رئيسا لقسم الدراسات الشرقية وموجها أول لبرنامجه الخاص بدراسات الشرق الادنى وظل فى هذا المنصب الاخير حتى عام ١٩٥٤م حين أحيل على التقاعد وان لم يجعله ذلك ينقطع عن العمل فعين استاذا زائرا فى جامعات : هارفارد ومينسوتا وساوباولو فى البرازيل وعضوا فى مجلس أمناء جامعة بيروت الامريكية فى الولايات المتحدة ورئيسا للجنة التربية بهذا المجلس ٠ ولم يتوقف عن الاسهام الفكرى بقدر ما تسمح به حالته الصحية حتى وافته المنية بعد أن أربى عمره على التسعين عاما ٠ وقد استقر «حتى» فى الولايات المتحدة فى الوقت الذى ازداد فيها اهتمام المسؤولين الامريكان بالمنطقة العربية وذلك بسبب سعى الشركات البترولية الامريكية الى كسر الاحتكار البترولى الذى فرضته بريطانيا على المنطقة فيما عرف باسم اتفاقية الخط الاحمر ٠ وهكذا نجد الولايات المتحدة خلال التطورات العاصفة التى شهدها المشرق العربى فى أعقاب الحرب العظمى تساند مبدأ «الباب المفتوح» فى مجال النفط بوجه خاص، مما أدى الى كسر حدة الاحتكار البريطانى فى هذا المجال وفتح الباب أمام الرأسمالية الامريكية الصاعدة لكى تشارك الرأسمالية البريطانية المتداعية أرباحها ثم لتهزمها فى نهاية المطاف ٠ وهذا الاهتمام الامريكى بشئون المنطقة قد انعكس فى برامج بعض جامعاتها التى تفرد الان مجالات لدراسة اللغة العربية وآدابها وتاريخ المنطقة وأوضاعها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ٠ وكانت برنستون أول جامعة أمريكية تعترف باهمية الدراسات العربية ـ الاسلامية وتضعها فى مكانها الحق فى مناهجها٠ وتوفر «حتى» على ريادة هذا الميدان الذى حظى باهم مؤلفاته : تاريخ العرب المطول ـ تاريخ العرب المختصر ـ تاريخ سورية بما فيها لبنان وفلسطين ـ صانعو التاريخ العربى ـ لبنان فى التاريخ (٣) هذا بالاضافة الى مؤلفات أخرى لم تترجم بعد أهمها : الاسلام أسلوب حياة ـ الاسلام والغرب ـ أصول الدروز والديانة الدرزية ٠

تاريخ العرب المطول

ولعل أبرز مؤلفات حتى وأوسعها انتشارا كتابه « تاريخ العرب المطول » الذى صدرت له حتى عام ١٩٦٥م ثمانى طبعات باللغة الانجليزية وترجم الى لغات أوروبية وشرقية كثيرة منها الالمانية والفرنسية والسويدية والاسبانية والبولندية والايطالية والصربية والكرواتية والاوردية والبنغالية والاندونيسية بالاضافة الى العربية ٠٠ وهذا معناه أن الكتاب لاقى اقبالا من معلمى

---

٢ ـ عمل مجيد خدورى بالتدريس فى دار المعلمين ببغداد قبل استقراره بالولايات المتحدة وكذلك الحال بالنسبة الى عزيز سوريال عطية الذى قام بالتدريس بجامعتى القاهرة والاسكندرية قبل هجرته الى أمريكا أما ألبرت حورانى فقد نشأ فى بريطانيا ٠

٣ ـ ترجمت كل هذه المؤلفات الى اللغة العربية وهى فى الواقع نسخ مختصرة ومنقحة من العملين الرئيسيين : تاريخ العرب المطول وتاريخ سورية

التاريخ وطلبعة فى كل هذه الاقطار، وله موجز صدر فى عام ١٩٤٣م من مطبعة جامعة برنستون وأصدر المجلس الحربى الامريكى منه طبعة خاصة للجيش كما نقل حتى عام ١٩٤٩م الى الاسبانية والبرتغالية والهولندية والعربية .

هذا الكتاب يبحث تاريخ العرب منذ أقدم العصور حتى القرن العشرين . وهو لايركز على البنية الفوقية للمجتمع العربى وأن يكن يعطيها ما تستحقه من اهتمام بل يتناول الى جانب ذلك تطور الحضارة العربية الاسلامية فى مدها وجزرها ويعرض لمختلف الفرق الاسلامية وللعلاقات بين الشق والغرب. وأخيرا يفرد بابا للعصر العثمانى والمؤثرات الغربية (٤) وهو باب لا ينسجم مع الابواب السابقة من حيث الحيز والعمق والتوازن مقحما فى نهايته دراسة خاصة عن الشيخ محمد عبده دون غيره من رواد النهضة العربية الحديثة (٥) .

والدكتور حتى فى هذا الكتاب وغيره من مؤلفاته يستند الى المصادر العربية الاصلية وغيرها من المصادر الغربية ويصطنع النظرة العلمية المتجردة عن العواطف والانفعالات السلبية والايجابية وينصف الاسلام وشخصياته البارزة وان يكن - من ناحية أخرى - ياخذ ببعض التفاسير الغربية للفتوح الاسلامية التى يربطها بالدافع الاقتصادى وبعادات العرب قبل الاسلام وفى ذلك قوله : ولا نزاع فى أن الاسلام ألف بين المسلمين ووحد أهدافهم وخلق لهم شعارا جديدا فكان نبراسا لامانيهم القومية الا أن هذه الروح الاسلامية العجيبة لا تكفى لتعليل الفتوحات فليست الاثرة الدينية والتعصب ما حدا بالعرب الى تدويخ الدول وفتح الامصار انما هى الحاجة المادية التى دفعت بمعاشر البدو وأكثر جيوش الفتح منهم .. الى ما وراء تخوم البادية القفراء الى مواطن الخصب فى بلدان الشمال .

ولعل تمرس الدكتور حتى باللغات والثقافات السامية هو الذى حدا به الى عقد المقارنات بين الاديان السماوية الثلاثة فهو يرى تشابها بين القصص التاريخى فى القرآن وما يقابله فى التوراة باستثناء بعض الانباء العربية المحضة وقصتين ترمزان الى الاسكندر وأهل الكهف والقصد من عرض هذه القصص عنده - هو التوصل الى عبر أخلاقية . وهو يعتبر الاسلام أقرب الى دين ابراهيم الخليل الذى تمثلة التوراة من دين عيسى الذى يبشر به الانجيل (٦) .

ويخلص من ذلك - دون تعليق - الى أن «بعض النصارى من أهل أوروبا ومن أهل الشرق تكون عندهم فى العصور الوسطى رأى يستند الى ما بين الاسلام واليهودية والنصرانية من تشابه مؤداه أن الاسلام بدعة نصرانية أكثر منه دينا جديدا » .

وهذا الخلاف فى الرؤية لا يغطى على كون الدكتور حتى قد أنصف الاسلام بوجه عام ووضع الحضارة العربية الاسلامية فى موضعها الحق بالنسبة الى التطور الحضارى العالمى . وفى كتابه « صانعو التاريخ العربى » يعزو الفرقة بين الاسلام والمسيحية لاالى الاختلافات اللاهوتية بل الى التطورات السياسية فطوال الفترة الطويلة من الصراع بين الاسلام والمسيحية « كانت الصورة التى انطبعت فى نفوس الغربيين عن النبى العربى وعن القرآن الكريم .. بعيدة عن الانصاف والحق » -

قائمة عظماء التاريخ العربى

أما عمر بن الخطاب فيحتل لديه المرتبة الثانية فى قائمة عظماء التاريخ العربى : فقد كان مؤمنا وقف حياته فى سبيل الاسلام وقائدا يلتهب حماسة ومقوضا لأحدى أعظم الامبراطوريات فى العالم ومؤسسا لمنصب الخلافة ولكنه لا يتردد فى تسجيل قسوة عمر مع أبنه عبد الرحمن ومع خالد بن الوليد

---

٤ - حظى التوريث بالفصل الاخير من كل من كتابى « الاسلام والغرب » و « الاسلام أسلوب حياة » .

٥ - يجارى المؤلف فى اهتمامه الشديد بمحمد عبده كثيرا من المؤلفين الغربيين - وعلى رأسهم تشارلز آدمز - الذين اهتموا بتفسيره العصرى للاسلام ومحاولته التوفيق بين العلم والدين وتأكيده على النواحى العملية فى الدين والاخلاق وتأسيسا لما يمكن اعتباره « لبرالية اسلامية » .

وهو ما يتغاضى عنه المؤرخون المعاصرون الذين نحوا منحى عبادة البطولة التى تحول دون رؤية الخطأ فيما يعبدون .

ويدافع حتى عن معاوية بن أبى سفيان الذى لم يكن بطلا فى نظر معظم المؤرخين العرب ، خاصة وأن معظم الروايات تحدثت عن مصادر شيعية أو عباسية وأن الروايات السورية التى تنصف الامويين قليلة جدا وهو يشيد بحلمه ودهائه ويعتبره « المبتكر العظيم والاول بين العباقرة السياسيين المسلمين الاربعة وبانى الامبراطورية العربية ومؤسس البيت الاموى » . ومن صانعى التاريخ العربى الذين نوه بهم ـ فى ميدان الدين والسياسة ـ عبد الرحمن الداخل والمامون وعبيد الله المهدى وصلاح الدين الايوبى ـ .

أما فى مجال الفكر فهو يفرد دراسة خاصة لكل من الغزالى والشافعى والكندى وابن سينا وابن رشد وابن خلدون وهم وغيرهم ممن سبقت الاشارة اليهم كانوا ـ فى رأى المؤلف ـ من نتاج الحركات السياسية والاجتماعية والفكرية أو الروحية .. وهم قد أعتلوا قمة أمواج هذه الحركات لتوجيه سيرها أو تعديله بمعنى أن مجرى التاريخ وتياره يؤثران فى القادة الذين يؤثرون بدورهم فى تحديد مجرى التاريخ هذه النظرة العلمية تختلف عن نظرة ممجدى العبقريات والبطولات الفردية المفتقرين الى النظرة النقدية والمتميزين بعدم الاتزان فى اصدار الاحكام .

وفى تناوله لابى حامد الغزالى يعتمد على ما كتبه المترجم له لا على ما كتبه مؤرخوه . وهو يستخلص من دراسته له أنه كان ذا عقل متحرر وتفان فى معرفة الحقيقة وجرأة أدبية وتجرد فى نقد زملائه من علماء الدين والشرع وتسامح فى نظرته الى المسيحية وتشدد فى تقديم الروحانى على المادى وسعى خالص لبلوغ المثل الاعلى فى الدين مما مكنه من التوفيق بين العقل والايمان وأن ينشىء مذهبا فكريا فى الفلسفة والدين بقى مع الايام موضع رضى السواد الاكبر من المسلمين وعلى حين أن الشافعى قد وضع أصول الفقه على أساس علمى فان الكندى جعل من المعارف اليونانية جزءا لا يتجزأ من الفكر الاسلامى وشق طريقا نحو التوفيق بين الفلسفة والعلم الالهى أما ابن سينا فهو فى رأى الدكتور حتى ـ يمثل الذروة فى الطب والفلسفة عند العرب ، وهو الذى مهد السبيل للفلسفة المسيحية واللاهوت المسيحى ليسيطرا على الفكر الغربى منذ العصور الوسطى ـ هذا على حين أن ابن رشد أفلح فى تقريب أرسطو من مدارك الناس وتزعم حركة عقلانية دامت زمنا طويلا ومهدت لعصر النهضة فى أوروبا .

موقفه من ابن خلدون

ويدحض دكتور حتى ما يشاع عادة من أن ابن خلدون قد أثر فى الفكر الغربى على حين ينصفه فى وجه الحزازات التى آثارها نقده للعرب ..فهو يخلص الى أن المستوى الذى وضعه لنفسه كان متدنيا لان مصادر معلوماته التاريخية عن الشعوب السامية القديمة وعن العالم الاغريقى ـ الرومانى كانت محدودة وبعضها مغلوط خاصة وأن لم يتعلم أى لغة أجنبية وحين أكتشفه الغرب كان الزمن الذى يمكن أن يؤثر فى الفكر الغربى قد ولى بحكم أن العلوم الاجتماعية التى عالجها كانت قد انتظمت فى الغرب وذلك برغم سبقه للعلماء الاوروبيين فى فلسفة التاريخ وتنظيم العلوم الاجتماعية فهو ـ على أى حال ـ المؤرخ الفيلسوف وعالم الاجتماع والفقيه .. أول من فلسف التاريخ وآخر جبار من جبابرة الفكر فى الاسلام .

ولا شك أن الدراسة التى يتضمنها كتابا «تاريخ العرب» و « صانعو التاريخ العربى» قد استغرقت جهد المؤلف سنوات طوالا عكف خلالها على المصادر العربية الاصلية وغيرها من المصادر الغربية .. على أننا مع تسجيلنا لاهمية الجهد الذى بذله المؤلف فى هذا المضمار لا نميل الى الجهد الفردى فى مثل هذا الميدان الشاسع بل نؤثر عليه التفرغ على جانب أو آخر من جوانبه بحيث يجىء العمل جماعيا على أيدى مجموعة من المتخصصين كل فى مجاله فمع اتساع جوانب المعرفة التاريخية وغير التاريخية لا يستطيع شخص أيا كانت طاقاته أن يلم بشتى أطرافها بمعنى أن العمل الموسوعى القائم على الجهد الفردى قد ولى زمانه.

وفى هذا الكتاب الاخير بوجه خاص يقع الدكتور

---

٩ ـ قارن ذلك بما يذهب اليه فى كتابه « صانعو التاريخ العربى » (الترجمة دار الثقافية ـ بيروت ١٩٦٩) ص ٣٢ من أن « الاسلام من جميع الاديان الاخرى أقرب دين الى المسيحية » .

حتى فى أحابيل الاقليمية السورية بوجه عام واللبنانية بوجه خاص وهو يذهب الى أن بلاد الشام قد حافظت على طابعها المتميز الذى أثرت فيه طبيعتها الجبلية وقربها من البحر واتجاهها الى الغرب وطابع سكانها ومثل هذا المحظور قد وقع فيه بعض مؤرخى مصر والعراق والمغرب بل واليمن وكل هؤلاء ممن تاثروا بالكيانات السياسية التى أوجدتها الظروف العالميه والمحلية، قد برروا قيام هذه الكيانات وكتبوا بمصد ابراز الخلفية التاريخية للكيان القائم أو المرتقب ·· وقد نبه المفكر العربى الكبيرأبوخلدون ساطع الحصرى الى خطورة مثل هذا التفسير الاقليمى للتاريخ ملفتا النظر الى التداخل التاريخى بين شتى اقطار الامة العربية ومنبها ـ الى أن سوريا أو مصر أوالعرق لم يكن لها تاريخ قائم بذاته الا فى فترات قصيرةنسبيا من تطورها على حين أن موقعها الجغرافى باعتبارها معبرا بين أفريقيا وآسيا ـ قد جعلها مطمعا لشتى الامبراطوريات التى سيطرت على المنطقة وأفقدت هذه الكيانات استقلالها فالذى يمعن النظر الى المنطقة العربية ـ التى هى متحف تاريخى فى الواقع ـ يجد أنها تختلط فيها المؤثرات منذ أقدم العصور بحيث لا يمكن لاى وحدة بشرية فيها أن تدعى النقاء أو الانفراد بانجازات تخصها وحدها ·· والانكى من ذلك الكشوف الاثرية الحديثة التى تصادف وجودها فى هذا القطر أو ذاك قد اتخذت تكاة لبعض الثغرات « الطائفية » أو « العنصرية » سواء أكانت فينيقية أو فرعونية أو حثية أو عبرانية أو اكدية أو غير ذلك ولا يمكننا أن ننكر مسئولية الاتجاهات الاستعمارية الغربية عن تعميق هذه التيارات الانعزالية بقصد تفتيت المنطقة العربية الى فسيفساء اقليمية من شانها أن تبعد احتمالات الوحدة العربية التى تشكل خطرا على مصالح كل من يفيدون من انقسام الوطن العربى وكما وقع «حتى» فى أحابيل هذه الاقليمية المزعومة التى تروج لها بعض الدوائر الغربية ، فقد تعثرت فيها أقدام طه حسين فى مصر ومن نحا نحوه من الانعزاليين المعاصرين · وكذلك الحال بالنسبة الى بلاد الشام المعاصرة (٧) ومنطقة الخليج المعاصرة والتبرير التاريخى المبتسر لشتى الكيانات التى يدعو اليها بعض الساسة فى منطقة أو أخرى من المناطق الواقعة بين المحيط الاطلنطى والخليج العربى ·

ونحن لا نقصد من ايراد هذه الملحوظات أن نغض من قيمة جهود مؤرخنا الكبير بل التنبيه الى بعض المنزلقات التى يقع فيها كثير من مفكرينا بحسن نية ·· فهو ـ آخر الامر ـ من الرواد الذين أطلعوا قراء تاريخنا فى العالم الخارجى على أهم منجزات العرب والمسلمين باسلوب علمى يتناسب مع عقلية من كتبت لهم مؤلفاته باللغة الانجليزية ·· كما أنه أسهم فى تكوين مدرسة من المؤرخين الامريكان الذين تفرغوا على دراسة التاريخ العربى بنفس النظرة العلمية التى طبقها أستاذهم الكبير وهى وحدها الكفيلة بادراك الكثيرين فى الغرب لحقيقة تاريخنا واوضاعنا وامانينا · ■■

د · أحمد عبد الرحيم مصطفى

٧ـ عقد فى دمشق منذ وقت قريب المؤتمر الدولى الثانى لتاريخ بلاد الشام ·

الكرامة والحكمة

● أبلغ أحد الاباء ابنه بأن الكرامة والحكمة هما مفتاحا النجاح فى ميدان العمل · وقال له : أما الكرامة فانى أعنى بها أنه اذا وعدت أحدا بتسليم بضاعة فى يوم معين ،فيتوجب عليك أن تفى بوعدك ولو أدى ذلك الى افلاسك ·

ثم سأله الابن : حسنا ، وماهى الحكمة ؟

فاجاب الاب : هى الا تقدم مثل هذه الوعود ·